سقط سهوا

رواية

إبراهيم المحلاوى

المؤلف : إبراهيم المحلاوي

مصمم الغلاف : طارق سوكه

المراجع اللغوي : أحمد منتصر

إهداء

إلى ...

كل من أحبنى وأحببته

كان آخر ما تلفظ به وهو على فراش الموت:

أن الحزن يدوم إلى الأبد..

فان جوخ

- ٠ -

طفل بديل.. هكذا ولدت، ولو كنت أعرف أنى سأكون بديلا.. لو كنت أعرف ذلك لرفضت.. لرفضت ذلك بشدة، وأقمت الثورات، ورفعت راية العصيان.

ولدت بعد سنة واحدة من اليوم الذى ولدت فيه أمى طفلا ميتا، كانت قد اختارت له اسم فاروق لكنه مات قبل أن يصرخ، قبل أن يستنشق غبار العالم الخارجى، رفض رائحة العالم التى دنست كل شىء.

كم تعجبنى شجاعة أخى الذى رفض أن يكون عبدًا لحياة تصلبه على ظهرها، وقدر يتحكم فى مصيره.. كم تمنيت أن أفعل مثله.

- I -

الشعور بالقلق ها هو يعود من جديد عندما أستيقظ.. القلق..
شعور يتولد من أفكار بعينها، صحيح أنها تنسى، لكنها تخلف وراءها قلقا غير قابل للنسيان..

هكذا كان يعتقد كافكا وأنا أيضا مثله.

تناولت علبة سجائرى الـ "ميريت" من على الكوموود الصغير المجاور للسرير، جذبت واحدة ثم أشعلتها بعود ثقاب، كنوع اعتيادى ومذاق خاص من سيجارة تشتعل بنار عود ثقاب وليس اشتعال غاز كريه الرائحة، نفثت منها نفسين ورميتها فى المطفئة مشتعلة.

قمت من مرقدى أسير نحو الباب فى الضوء المتسرب من النافذة، اتجهت نحو غرفة مكتبى أشغل جهاز الكمبيوتر الذى جلست أمامه، أتذكر ما علىَّ فعله.

* * * * *

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

* * * * *

بأصابع يدى اليسرى أنهيت كتابة مقالى الشهرى لمجلة الفن التشكيلى قبل أن أرسله عبر البريد الإلكترونى لينشر فى العدد القادم.. لم أذهب إلى المجلة من قبل، فكل ما يربطنى بها لا يتعدى تبادل الرسائل عبر البريد الإلكترونى.. فلا أحب أن يرى أحد عيون فنان فاقد الموهبة.. لا أحب رؤية نظرة الشفقة فى عيون هؤلاء المتطفلين الذين يسألون، كيف يستطيع أن يعيش هكذا؟

أتذكر عندما كنت أرسم لوحة جديدة أعيش داخلها، أمتزج بها، أشعر أننا أصبحنا شيئا واحدا .لقد شرعت فى رسم العديد من اللوحات منذ سنين عدة إلا أنى توقفت إجباريا عن ذلك، ولأننى لا أعود إلى مشاهدة لوحاتى بعد إنجازها فإنها تظهر لى مجتمعة، ولا تبدو منفصلة إلا نادرًا، وأكثر ما يضايقنى هؤلاء النقاد الذين يعرفون التفاصيل أكثر منى، يسألوننى دائمًا:

- لماذا عملت هذا الشىء أو ذاك؟

ولا أستطيع أن أجيب عادة، إذ يصعب علىَّ أن أتذكر ما فكرت فيه عندما رسمت لوحة منذ عشرين سنة.. وبعدما صرت واحدًا منهم أصبحت مثلهم تافهًا، أهتم بأشياء لا علاقة لها بالفن التشكيلى.

أتذكر أيضا.. كنت أقيم معارض للوحاتى كثيرًا، يحضرها العديد من المشاهير فى الفن التشكيلى والمتذوقين بالإضافة إلى النقاد، وأذهب إلى

معارض أكثر فى العديد من دول العالم خاصة روما وباريس، فالدعوات تنهال علىَّ سنويا.. الكل يتمنى حضورى، يتمنى معرفة رأيى، ولا يمكننى أن أتهرب.. فلو أغمضت عينى لبدا الأمر تذوقا وهيمانا بالإبداع المنقوش على اللوحة.

الآن لا أحد يريد رأى رجل فقد موهبته، وإن كان لم يفقد بعد حس الفنان الساكن داخله.

* * * * *

ليس هناك ما يمنع من أن نفقد بعض الأشياء إلى الأبد..

بتر معصمى الأيمن.. كان شيئا مؤسفا أن تفقد أعز ما تملك.. يدك اليمنى وموهبتك فى آن واحد.. كان حادث سير مؤلمًا وأنا فى طريقى إلى مارينا للاستمتاع بعطلة الصيف الماضى.. التفت السيارة حول نفسها وسقطت، وسقطت مع السيارة، صحوت من هذا الحلم المفزع لأهش ذبابة وقفت على أنفى فلم أجد معصمى.. واعتقدت أنه آخر شىء سوف يجود به الزمن علىّ إلا أننى كنت مخطئا.

عانيت كثيرًا بذلك المعصم الصناعى الذى حل مكان معصمى الأصلى، كنت أشعر أنه شىء ليس ملكى، شىء طارىء وسرعان ما يزول إلى الأبد.. لكن الأخرى هى التى زالت إلى الأبد على الرغم من التشابه الذى يجمعها بالمفقودة.

كنت أتمنى حينها أن أكون ذلك الرجل الوسيم القوى الذى تحبه النساء ويغار منه الرجال، حتى يعوضنى شيئا عما فقدته.

أغلقت جهاز الكمبيوتر واتجهت نحو مرسمى الصغير..

* * * * *

بأطراف يدى اليمنى الصناعية وبمساعدة يدى اليسرى المطبقة عليها، بدأت رسم لوحتى الألف أو طفلتى الألف. فأنا أشعر أن كل لوحة أنتجها ما هى إلا قطعة منى بذلت فيها مجهودًا خرافيا حتى تخرج إلى النور مثل الأطفال تمامًا.. تمسك يدى الصناعية بالفرشاة بينما تساعدها يدى اليسرى على الحركة بإحكام وإبداع.. فدائمًا هذا قدر اليد اليسرى أن تقوم بدور الرجل الثانى، ومهمتها هى تهيئة الأجواء؛ فهى تساعدك فى ربط حذائك لكن لا تربط بها، تمسك بها الورقة لكن لا تكتب بها، تقطع بها

الكرة فى مبارة كرة اليد لكن لا تسدد بها، هكذا تظل طول حياتها، أشعر كم هى مضطهدة دائمًا، حتى عندما ماتت يدى اليمنى ظلت كما هى قابعة فى رداء الرجل الثانى، فدور البطولة ليس لها، لم تخلق من أجله.

ببطء سلحفاة وتركيز طالب فى امتحان بدأت أضع الخطوط الأولى للوحة.

لم أكن متعجلا حتى أعرف ماذا سوف أصنع فأنا لست واحدًا من هؤلاء الذين يتعجلون معرفة جنس طفلهم القادم، إلا أننى أعرف أنه سيكون مشوّهًا.

* * * * *

الحياة.. أتعرف الحياة؟!

الحياة ممتلئة بالعزلة، والبؤس، والعذاب، والتعاسة، وتنتهى بسرعة البرق..

لذلك لم أشعر قط بانقضاء الزمن، فهو لم يجد بالفعل بالنسبة لى، وإن كنت أبالى بالساعات باستثناء ما كان يفرض علىَّ من مواعيد.. فأنا دائما أؤمن أن الأمور سوف تتحسن كلما كبرت فى السن.. فأغرب الأمور تدور فى رأسى خاصة عندما بلغت الخامسة والأربعين، وأعتقد أننى أواجه

أزمة حياة، أو شيئا من هذا القبيل، لا أدرى.. أنا لا يقلقنى التقدم فى السن.. أنا لست واحدًا من هؤلاء الشخصيات.

آثار الزمن بدأت تحط علىّ، بدأت بصلع خفيف أعلى الرأس وقد انتفخ وجهى قليلا وبدأ كرش صغير يظهر علىَّ وأخذت دوائر سوداء ترتسم حول عينى، أعتقد عندما يصيب الصلع رأسى كلها ستتحسن أمور كثيرة خاصة علاقتى بليلى فأنا لا أستطيع حتى الآن تقبل هذه الحقيقة.. أننا انفصلنا.. شىء مؤسف حقا.. أحاول دائما غربلة أجزاء من هذه العلاقة فى عقلى، لكنى وبكل أسف لا أستطيع فعل ذلك..

* * * * *

ذهبت الى خزانة الملابس، أغير ثيابى، ثم أحضر الإفطار، وقبل ذلك كنت قد غمرت وجهى بالقليل من الماء الذى مسحته بالفوطة المعلقة بجوار حوض المياه.

- II -

لا أزال أشعر كما كنت أشعر وأنا ذلك الصبى النحيف الداكن الشعر الذى لم يتجاوز بعد عامه العاشر الحالم دائمًا بتغير الأشياء من حوله ومجادلة الآخرين والنضال من أجل أفكاره ومعتقداته.

كنت أملك مخيلة زائدة الحيوية؛ خيالا جامحًا يحول أبسط الأشياء وأتفهها إلى رموز معقدة يصعب فكها، يقفز عقلى أحيانا فيدور قليلا، وأجد بعض الصعوبة فى التمييز بين الخيال والحقيقة، وبسبب هذا أخذتنى أمى إلى طبيب نفسى. ذهبنا إليه، دخلت معى، وجلست بجوارى على المقعد. كانت العيادة بمجملها فوضوية من الطراز القديم.

وقف الطبيب أمامنا وهو يحمل سيجارة بين إصبعيه وينفث منها على مهل ويستمع إلى أمى وهى تحدثه:

- كان فى حالة اكتئاب ولم يعد باستطاعته القيام بشىء، فقد الكثير من التركيز والاهتمام بالآخرين.

فهز الطبيب رأسه وهو يحدثنى:

- لماذا أنت فى حالة اكتئاب يا فاروق؟

- ....

أحيانا عندما ينطق اسمى أشعر أنه اسم شخص آخر.. شخص لا أعرفه، ليس لى به أى علاقة.

لكزتنى أمى عندما لم أرد على الطبيب قائلة:

- أخبر الدكتور بما تعانى منه.

ألقيت برأسى إلى أسفل محدقا فى بلاط الغرفة المرسوم على شكل لوحة شطرنج بينما تولت أمى الإجابة نيابة عنى:

- إنه شىء قد قرأه.. أشياء قرأها، فهو مغرم بالقصص والروايات، أفلام من نوعية الخيال العلمى، لقد أفسدته.

نفخ الطبيب غبار سيجارته وهز رأسه وهو يقول:

- شىء قرأه!.. ما هو؟

- البراكين سوف تثور.. ويذوب العالم..

قلتها وأنا لا تزال رأسى إلى أسفل محدقة فى الفراغ.

ثم كرر الطبيب جملتى بإمعان، وبدأت أرفع رأسى نحوه وهو يتحدث:

- أتعرف؟.. إن العالم هو كل شىء وإذا كانت البراكين سوف تثور، ويذوب الثلج، فيومًا ما سوف ينتهي ويكون هذا نهاية كل شىء.

أنهى كلامه، ولمحت أمى تنظر نحوى باشمئزاز.. ثم صرخت فىَّ قائلة:

- وهل هذا شأنك؟

ثم استدارت نحو الطبيب متبعة حديثها:

- لقد أهمل كل دروسه وواجباته المنزلية.. ونسى حياته كطفل.

صدمها ردى غير المبالى:

- وما فائدة كل هذا؟

فاستشاطت غضبا وهبت فىَّ وهى تلوح بكلتا يديها قائلة:

ـ ما علاقة الكون بهذا؟!.. دعك من هذا الخيال وعِش على أرض الواقع، أنسيت! أنت تعيش فى مصر.. دعك من هذه الأفلام التى تسيطر على عقلك إنها خرافات، أفهمت!

أحس الطبيب بوقع الكلمات علىَّ فحاول التخفيف عنى:

ـ فاروق.. لن تثور البراكين.. ولن يتحلل العالم قبل بلايين السنين ولسوف نحاول الاستمتاع بينما نحن هنا.

وأنهى كلامه بابتسامة ودود.

وحاول إفهامى أننى أبالغ فى معتقداتى إلا أننى كنت أبتسم له فهو لا يعرف شيئا عنى، فهو لم يعِش فى بيت بالقرب من السكك الحديدية، لم يستيقظ يومًا على صوت الصافرة التى يصدرها القطار التى كانت تصم الآذان، لم يجلس يومًا على المائدة يتناول الحساء ويقرأ مجلة ميكى ثم يفاجأ وهو يضع الملعقة فى فمه بالبيت يهتز وتهتز معه يده فيُسكب الحساء الساخن على ثيابه.. وإن كنت تأقلمت على هذا الوضع إلا أننى أعتقد أنه سبب عصبيتى الزائدة.

كما أنه لا يعرف شيئا عن شكرت جارتنا التى كنت أحبها قديمًا، حب الصبا، كانت على أعتاب المراهقة، أعترف أنها أول امرأة أكتشف جسدها وأرى مفاتنها. أدمنت التلصص عليها وهى تغير ملابسها، كاشفة للحظات عن اللحم الأبيض الشهوانى لجسمها المكتنز، أحملق فيها فاغرًا فمى بدهشة، كانت رؤية تحمل فى طياتها كل جاذبية الفاكهة المحرمة ورعب الخطيئة، ومعها بدأت أعرف ما هو الجنس والحب، وشرعت فى كتابة يومياتى أحكى فيها ما تفعله شكرت فى غرفة نومها إلا أننى لم أستمر فى ذلك طويلا فأحرقت ما كتبت خوفا من أن يقع فى يد أبى أو أمى.

شكرت .. ....

كنت أرسمها عارية، كما كان يظهر لى إلا أننى لم أستطع بث الروح داخلها فبقت مجرد ورقة بيضاء نحت عليها تمثال لامرأة عارية.

كانت تأتى إلينا لتساعد أمى فى أعمال البيت وأحيانا كانت تجلس معى عندما تخرج أمى إلى السوق ولا يبقى أحد سوانا، كنت أتلمس جسدها بحذر وبقلب يرتجف وجسم مرتبك، أتلمس يدها وأنا أتناول منها طبق الحساء، فخذيها عندما تستلقى رأسى عليه لأنام، أردافها عندما نتقابل فى

فوهة مطبخنا الضيق.. وان كانت لا تبالى بما أفعل وإن كنت أبالى بكل شىء.

* * * * *

أذهب إلى المدرسة كل صباح كفعل اعتيادى ليس بالجديد أن تفعل ذلك، أنزوى فى آخر الفصل، بينما تحيط بى أفعال الأغبياء من الطلاب، تبادل أوراق، نقر بالمساطر، همس لا ينقطع، مضغ لبان، وغيرها..

جودى؛ صديقتى المسيحية منمشة الوجه عندما تدخل أنتبه، تتغير ملامحى، لا أعرف ماذا يحدث لى عندما أراها إنه شعور غريب نادرًا ما يجتاحنى، ولا أعرف كيف فعلت ذلك بينما الجميع منهمك فى متابع المعلمة؛ اندفعت نحوها وطبعت قبلة على خدها الذى اكتسى بالحمرة عندما قامت فزعة من مجلسها، وبازدراء حكت خدها وكأن من قبلها خنزير قذر.

عدت إلى مقعدى بينما معلمتى تشير إلىَّ بأن أتبعها إلى غرفة الناظر، وهناك نهرتنى على فعلتى وحمرت يدى بعصاها ولصقت فى جيب سترتى ورقة.

- لا تعد إلا ومعك ولى أمرك.

* * * * * *

عدت إلى البيت كان وجهى محتقنا والغضب يجتاح عقلى والغيظ ينبثق من عينى المحمرتين وقد غادرت كل ملامح الطيبة وجهى لأننى لم أرد على معلمتى واكتفيت بتأديبها لى.. كنت أود أن أقول لها:

- إننى لم أكن أفعل سوى التعبير عن فضول جنسى صحى.

فالكثيرون يعتقدون أن الأولاد ذوى العشرة أعوام لا تكون الفتيات جزءًا من تفكيرهم، وهذا خطأ... فهن كل تفكيرهم.

فتح باب شقتنا، فطالعتنى شكرت جارتنا -هى من تفتح لى الباب- اكتفيت بالنظر إليها ثم تجاوزتها وسألتها وهى تغلق الباب:

- أين أمى؟

أغلقت الباب واستدارت نحوى قائلة:

- لقد ذهبت إلى أمر مهم.. وقالت لى بأن أبقى لأحضر لك الطعام.

هززت رأسى فى أسى.

- هيا اذهب إلى غرفتك أبدل ملابسك حتى أجهز لك الطعام.

- لا أريد.

- فاروق.. ماذا بك؟ ما الذى حدث؟

- لا شىء.

- ماذا جرى؟

- وقعت فى مأزق بالمدرسة.

- هل أنت بخير؟

- لا.

تركتها وجلست أمام التلفاز المُضاء ولم أنتبه لما يعرض به، ارتمت شكرت بجوارى محاولة بيدها التى تربت على ظهرى أن تخفف عنى، ثم علت ذراعها وطوقت رقبتى وألصقت مقدمة رأسها برأسى قائلة بصوت مغلف بالحنان:

- فاروق.. ما الذى حدث؟ تحدث لن أخبر أحدًا.. لا تخف.

- ....

- ألا تثق بى؟

وضمتنى إلى صدرها الصاعد فى النمو فتناسيت ما أنا به، غمرنى حنين غير عادى واجتاحنى هوس جنسى جامح، ولمَ لا وهى أول مرة أتلمس صدر امرأة غير أمى؟ جردتها بخيالى من كل ملابسها وتمثلت لى الفتنة التى تطل من كل شىء فيها؛ بدءًا من ساقيها العاريين إلى شعرها المسدل خلفها، سحبت رأسى من على صدرها تدريجيًا، ولم أشعر بما أحدثته إلا بعدما لطمت شكرت خدى بقوة بعدما طبعت قبلة على شفتيها.

أحدقت فى الأرض وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب، وارتميت على السرير أفكر فيما حدث وما سيحدث بعد ذلك. ظللت هكذا شارد الذهن، كنت أشعر بقلق وخوف ورهبة تأخذنى العديد من السيناريوهات التى رسمها عقلى وكانت كل نهايتها مفزعة حقا. غمرنى النوم ولم أستيقظ إلا على شىء أملس يمسح على وجهى وشىء دافىء يلتصق بجبهتى ثم يزول، كنت أعتقد أنه حلم جميل عندما هممت بفتح عينى فأصابنى شلل فى عقلى وعينى محدقة فى شكرت التى أتت لتصالحنى على ما فعلت. ما هذا؟ تصالحنى؟ كيف؟! أنا لم أفكر بذلك، كم هى إنسان رائع كما رسمها عقلى دائمًا.

ـ فاروق.. أنا آسفة على ما حدث، كانت يدى قوية.. أليس كذلك؟

ـ ماذا؟.. أنا من يجب عليه أن يعتذر.

ـ لا عليك لقد انتهى الأمر.. إنها قبلة أخ لأخته الكبرى.

وابتسمت ابتسامة خلابة بان فيها صف أسنانها العاجية التى تحاكى اللؤلؤ المرصوص بعناية فائقة. إلا أننى مسحت هذه الابتسامة عندما قلت فى أسى:

ـ الأمر بالنسبة لكِ انتهى، لكن بالنسبة لى لم ينتهِ، لن أسامح نفسى أبدًا، أتعرفين ماذا حدث لى فى المدرسة اليوم؟.. فعلت مثلما فعلت معكِ.

وفى نهاية اليوم التالى كسرت ذراعى بعد مبارزة من جانب واحد إثر علم أبى بما أحدثته فى المدرسة. وإن كنت فى نفسى سعيدًا لأنه لم يعرف ما أحدثته مع شكرت.

- III -

تعود ذاكرتى إلى الوراء فتفسد كل شىء.....

ما زلت أتذكر أدق التفاصيل؛ حاولت كثيرًا أن أنسى هذه الذكريات لكن لا فائدة، تظل قابعة فى قرص عقلى الصلب وترفض الحذف. كم تمنيت أن يصيبها العطب.

اجتذبنى صوت أحدهم يصرخ فأفاقنى من شرودى وأنا أقف على الكورنيش أتأمل نهر النيل، كان صوت غريق يستعد النيل أن يلتهمه ويأخذه إلى عالمه الساحر، إلا أن ظنى قد خاب بعدما أنقذه شاب، كان يبدو عليه أنه سباح ماهر، عله بطل أوليمبى لم نسمع عنه بعد..

خبطت يدى بجبهتى متذكرًا موعدى مع جيهان، انزلقت فى تاكسى قديم متهالك، كنت أشعر أنه ينتظر الفرصة كى ينفجر معلنا تمرده على الحياة القاسية التى يعيشها..

"زواجى بجيهان ها هو تمر عليه أربعة أعوام لكن من يشاهدنا لا يعتقد ذلك؛ فنحن نلتقى مثل العشاق نذهب إلى السينما ونسير على الكورنيش ونجلس فى جنينة الأسماك، عندما نلتقى فى شقتنا نلتقى خلسة، بعيدًا عن الأنظار دون أن يشعر أحد، وكأننا نسرق أوقات المتعة الجميلة لنستمتع

باللذة ثم يعود كل منا إلى حياته. فهى تقيم فى شقتها الخاصة وأنا أقيم فى شقتى الخاصة والتى تصير شقة الزوجية فى بعض الأحيان".

نزلت من التاكسى مهرولا نحو بوابة السينما، كنت أعتقد أننى سأجد جيهان تنتظرنى لكن كعادة كل بنات حواء الرجال هم من ينتظرون طول عمرهم حتى إن بعضهم يظل ينتظر طول العمر ولا يأتى أحد، ومثل كل رجل وُضع فى مثل هذا الموقف ظللت أطالع ساعتى كل لحظة حتى شعرت بثمالة الوقت..

لاح طيفها من بعيد وكعادة كل النساء تأتى إليك وعلى وجهها ابتسامة خجلة وتسوق لك الأعذار؛ من كسر كعب الحذاء، زحمة المواصلات، وأيضا كعادة كل الرجال تستمع إليها باهتمام وفى النهاية تتقبل الأمر وكأن شيئا لم يحدث.

جذبتها نحو بوسترات الأفلام المعلقة أمام السينما، كانت أفلام عدة والاختيار كان صعبًا إلا أننى قلت:

- سأدخل هذا.

- نعم!! لا.. إنه ليسرى نصر الله.

- لذلك سوف أدخله.

- لن أدخل معك، أنا فى حالة نفسية سيئة وليست لدى القدرة على المشاهدة والتركيز.

- دعك من هذا.. هيا.

- أرجوك رأسى يؤلمنى، هيا نجلس فى مكان هادىء.

- إذن لمَ أتيت؟ لا ريب أنك تمرين بعادتك الشهرية.

- أنا لا أمر بعادتى الشهرية.. ما الذي جعلك تعتقد هذا!!

- إذن هيا.

اتجهنا نحو شباك التذاكر، كان يقف أمامنا اثنان اشتريا التذاكر ثم غادرا، ثم سألت موظف الشباك:

- هل بدأ الفيلم؟

- منذ خمس دقائق.

ضربت بيدى على زجاج الشباك:

- يا إلهى، جيهان انس الأمر لا أستطيع الدخول.

- إنها خمس دقائق يا فاروق!!

- كلا.. لا أستطيع أن أفعل ذلك.. أنتِ تعرفين أننى لا أستطيع حضور فيلم فى منتصفه.

- منتصفه!!

هززت رأسى علامة الإيجاب وزفرت بقوة..

- سوف تفوتنا العناوين فقط..

- جيهان هل لديك الرغبة فى تناول القهوة لمدة ساعتين ثم نذهب إلى العرض التالى؟..

- كلا، إنى راحلة.

- انطلقى، مع السلامة.

تركتنى ورحلت.. يا لها من امرأة ساذجة لا تعرف أهمية تترات البداية، لا تدرك ماذا تعنى لكل فنان، ومن المفترض أن يعنى لها فهى أيضا فنانة، راقصة باليه، أرقى فنون التعبير الحركى، من يشاهد هذه العروض هم أصحاب الذوق الرفيع لكن على ما يبدو أن من يمارسها ليس من هؤلاء..

* * * * *

تعاودك فى منتصف العمر اضطرابات مختلفة عن اطمئنان الأطفال، إنه أشبه بالتحرر من الاهتمام الذى يفتقر إلى مرح الصبا، إلا أنه نوع من الحرية.

بمجرد أن تغوص فى مقعدك داخل صالة العرض المظلمة حتى تسترخى عضلات الصراع من الداخل وتتحرر من بذل الجهد، من ذلك النضال الذى يفرض عليك فى منتصف العمر.

تسترخى وكأنك فى الحمام، تستلقى هناك وتستسلم وتكون مدركًا أن المياه الساخنة سوف تبرد فى دقائق..

أتذكر، عندما كنت صغيرًا، كنت مولعًا برؤية الأفلام فى صالة السينما، كنت أود أن أخترق قماش الشاشة البالية البيضاء كى أعيش عالم الممثلين.. إلا أننى كنت أكتم جنونى كى لا أصطدم بالجدار الذى يغطيه الشاشة.

بدأت التترات فى الهبوط ومعها بدأ عقلى فى التركيز الشديد، والتدقيق فى كل ما يظهر على الشاشة، علنى أجد فكرة جديدة أضيفها إلى لوحتى الألف.

لفت انتباهى دخول سيدة ترتدى الخمار جلست بجوارى، تبدو من ملابسها امرأة فاضلة، غير أنى غيرت رأى سريعًا بمجرد أن أخرجت علبة سجائر من حقيبتها وجذبت واحدة وأشعلتها ونفثت بهدوء لتشاهد اللوحة البيضاء من خلف الغبار الذى تنفثه. تملكنى شعور غريب..

أود أن أضرب هذه الوقحة؛ كيف تشعل سيجارة فى قاعة السينما ولا يمنعها أحد!! كم هى سيدة وقحة!! أعتقد أنها عاهرة أتت لتصطاد فريستها لتغمرها بحنانها.

طردت هذه الأفكار التى سيطرت على عقلى وبدأت أركز فى الفيلم الذى فكرت أن أدخله مرة أخرى بسبب هذه السيدة التى أخرجتنى من تركيزى وفاتتنى خمسة مشاهد دفعة واحدة، شىء محزن حقا..

..

..

..

...

أظلمت الشاشة وظهرت لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء.. فيلم ليسرى نصر الله.

* * * * *

لفح وجهى هواء بارد فى الشارع المزدحم بالسيارات عندما قررت الهبوط من التاكسى وتكملة رحلة الوصول إلى البيت سيرًا، كان الشارع

يموج بحركة لا تنقطع، تنتشر فى جميع الاتجاهات على الرغم من أنه يوم عطلة.

أخرجت علبتى الميريت المغلقة، فتحت فتحة لسيجارتين وأخرجت واحدة حشرتها فى طرف فمى مشعلها بعود ثقاب، حشرتها بين أصابع يدى اليمنى الصناعية حتى لا أرهق اليد اليسرى، اجتذبت عدة أنفاس متتالية ونفثتها بقوة مكونا غيمة كثيفة من الدخان، ومن وراء هذه الغيمة بدا لى كل هذا؛ ورشة ميكانيكى بها الأسطى يمسك بطفل يعنفه ويعامله بقسوة ويعلمه كيف يمسك بآلة أكبر من حجمه، يدفعه على الأرض ليقع على وجهه وهو ينظر إليه بعينين ناريتين ويتمتم بشتائم موجهة إليه ولأبويه، ليرفع الطفل وجهه وينظر إليه بعيون مكسورة دامعة، شحاذون ينتشرون فى جنبات الطريق يبسطون أيديهم طلبا للإحسان، صانع أحذية يجلس خلف صندوق طلائه الذى يطرق عليه بمقدمة فرشته التى يستخدمها فى إنهاء عمله، ثلاثة شبان برفقتهم فتاة يوقفهم ضابط شرطة يطلب منهم بطاقاتهم الشخصية، مالت الفتاة على أذنه وهمست فأشار إلى الشباب بالانصراف ملوحًا بيده بينما اليد الأخرى تصطحب الفتاة إلى سيارته ثم تلوح الفتاة إلى الشباب "بااى"!

سمعت أحدهم يهمس خلف أذنى، فتلفت، فلم أجد أحدًا، سحبت نفسًا أخيرًا من سيجارتى ثم فركتها تحت نعل حذائى، وأكملت المسير.

- IV -

لم تكن شقتى فى الماضى ليست سوى مكان فوضوى غير منظم تجتاحه حبات الغبار وخلايا العنكبوت المرتسمة فى زوايا الغرف فضلا عن اللوحات المترامية فى كل مكان، أما الآن وبعد زواجى الأخير من جيهان أصبحت الشقة فاخرة بكل المقاييس مفروشة بذوق رفيع، من النافذة تتأمل المدينة بأضوائها المتلألئة التى ما زالت تتحرك فى الظلام وقد كساها جو هادىء.

خلعت ثيابى باستثناء ملابسى الداخلية وجواربى ثم اتجهت نحو مرسمى الصغير المرتب دائمًا بفضلها والذى لا أزال أمارس فيه هوايتى المفقودة الآملة فى خروج الطفلة الألف إلى الحياة.

أمسكت بالفرشاة بعد ما أغطست طرفها فى اللون البرتقالى وبدأت بحذر شديد بواسطة يدى المفقودة وبمساعدة الأخرى أكمل ما توقفت عنه، انهمكت فى الرسم حتى غلبنى النعاس. لم أكن قد رسمت سوى تفاصيل بسيطة أعتقد أن اللوحة كانت فى حاجة ماسة إليها، تركت كل شىء كما هو واتجهت إلى غرفة النوم بحثا عن شىء من الراحة ، ومع اقترابى سمعت صوت همهمة خافت وتقلب على السرير.. كان صوت أحد يستيقظ

من النوم، أيقنت أنها هى، فدخلت والنوم فى سبيله إلى الطيران من عينى فلم أعد أفكر سوى فى شىء واحد، دلفت إلى الداخل فوقفت مبتسمًا بعينين تنبعث منهما الرغبة، فباغتتنى جيهان قائلة وهى تضىء الأباجورة التى بجوار السرير:

- فاروق لماذا تأخرت كل هذا؟ وأين ملابسك؟

لم أرد عليها واندلفت تحت الغطاء منحنيًا عليها أقبلها برقة فأبعدتنى بيدها:

- فاروق لا أريد.

- لماذا؟

- أنت تعرف أن عندى عرضًا غدًا وأريد أن أكون فى كامل لياقتى البدنية.

- لن أرهقك كثيرًا.

فقالت بحزم:

- لا..

وكأننى أستسلم للأمر الواقع على الرغم من يقينى أنها ترغب فى ذلك وسوف تستسلم لو حاولت معها مرة أخرى.

- إذن.. أكملى نومك، ما زال الوقت باكرًا على الفجر.. نامى.

استدرت إلى جانبى الآخر وأغمضت عينى ثم سمعت صوت جيهان منخفضا ينبعث من خلف ظهري..

- لقد اتصلت بك طليقتك اليوم.

- ليلى!

- عندما كنت فى السينما.

- نعم.. لقد كنت مغلقا هاتفى الجوال.. ألم تقل شيئا؟

- لا.. قالت فقط أن تتصل بها.

توقف الكلام بينى وبينها وبوادر الغيرة تلوح فى الأفق، وشعرت بيدها وهى تمتد لتطفىء ضوء الأباجورة الخافت وتدفن رأسها فى المخدة، بينما فكرة الخلود إلى النوم فارقتنى تمامًا.

* * * * *

ليلى..

الحنين.. آه من هذا الحنين الذى يأتى كرياح عاصفة تقلب أوراق الماضى وتسحبك إلى عالمك الحالم. ينتابنى نوع من الحنين نحوها، إحساس عميق مقلق، ينتابنى كلما سمعت اسمها.

أحدقت فى الضوء المتسرب من النافذة بينما جيش من النمل يزحف فى رأسى من كثرة التفكير فيما تريد ليلى منى بعد خمس سنوات عجاف.

نبتت فكرة فى رأسى.. كاملة.. ناضجة.. قمت من مرقدى أتحسس طريقى فى الظلام خارجًا.. مغلقا الباب خلفى بهدوء.

* * * * *

داخل مرسمى..

أسبلت جفنى ونظرت فى استرخاء إلى اللوحة التى سحبتها من تحت كتلة من اللوحات المغطاة بأوراق الجرائد ثم علقتها أمامى على الحائط .. فهب الماضى بغير سبب نبش الجرح الذى فى قلبى وتذكرت عيونها الزرقاء الواسعة مثل زرقة السماء، أنظر إلى وجهها فى اللوحة القديمة، فقد كنت أحب رسم وجه ليلى، الوجه الوحيد الذى رسمته كثيرًا..

كنت أشعر وأنا أعانق اللوحة بأننى أعانقها هى، أضيف الألوان إلى اللوحة فأشعر بها تضحك خجلى بالأحمر وترقص بالأصفر وتجلس وادعة بالأخضر ومتزنة بالأزرق. دائمًا ما كنت أرسمها بما يمليه علىَّ قلبى، لكن لم يبقَ لها سوى هذه اللوحة. أحتفظ بها منذ عشرين عامًا.

كانت تبتسم فى اللوحة ابتسامة تجعلك لا تلتفت عنها، خصلات شعرها المتناثرة على جبهتها العريضة قد زادت من جمالها، وهناك روح تختبىء وسط اللوحة حتى تكاد تسمع بأذنيك ضحكة صافية عذبة كصوت الماء البارد المنهمر من فوهة نافورة أندلسية.

لم يكن هناك فرق يذكر بين تلك الفتاة الرقيقة العذبة التى لم تتجاوز العشرين من عمرها المنقوشة على اللوحة، وبين هذه السيدة التى تخطت الأربعين..

كم أشتاق إليها..

* * * * *

أحلام أم كوابيس؟.. لا أدرى.

كانت صحراء؛ فقط مجرد صحراء جرداء ليس بها سوى زرقة السماء وصفرة الأرض، بينما كنت أنزلق فى باطن الرمال المتحركة فى انتظار النجاة.

- V -

من أجمل ميزات الحشيش أن المرء يصحو دفعة واحدة أما أكبر مساوىء الكحول أن المرء يصحو بشكل متقطع.

حين رن جرس الهاتف أخرجت رأسى من تحت المخدة ليأتينى صوت ليلى الممتع دائمًا كما اعتدته:

- هاى فاروق.. أنا ليلى.. هل اتصلت فى وقت غير مناسب؟..

لا أتذكر ماذا قلت لها؟ وكيف أنهيت المكالمة؟ إلا أننى أتذكر أنها أرادت مقابلتى فى الرابعة بعد الظهر.

انتظرت كثيرًا حتى أفقت من نومى، تذكرت بعض المشاهد الخاطفة من حلم البارحة لكننى لم أهتم به.

صداع يستوطن رأسى، لقد أسرفت فى تناول الشراب البارحة. فكرت فى أن أنادى جيهان لتصنع لى فنجان قهوة إلا أننى تراجعت عن ذلك عندما تذكرت أنها مشغولة بعرضها الذى سيقام الليلة وعليها التواجد هناك من الثامنة صباحًا، فلا يمكن أن تظل فى البيت حتى الواحدة ظهرًا.

أشعلت سيجارة ثم نهضت من مرقدى متجهًا نحو النافذة ورحت أتأمل البشر والسيارات والأصوات المتدفقة فى الخارج. التهمت عدة أنفاس طويلة متلاحقة ثم ألقيت بها من التافذة تهوى..

عانيت حتى عثرت على ملابس نظيفة أرتديها، أخذتها ودخلت الحمام معلقها على الشماعة المثبتة خلف الباب الذى أغلقته خلفى.

انزلقت ملابسى الداخلية من على جسدى الأبيض الممشوق رغم عوامل السن ليظهر شعر صدرى الكثيف ولأجد نفسى عاريًا تحت المياه الباردة التى اعتاد عليها جسدى صيف شتاء.

* * * * *

كانت تقف وسط مجموعة من النساء، كنت أقف وسط مجموعة من الرجال. فى يدها اليمنى سيجارة محشورة بين أصابعها تنفث منها على مهل، أما اليد الأخرى فكانت ممسكة بكأس من النبيذ الأحمر؛ أنظر إليها، تنظر إلىّ، أتأملها، تتأملنى، تبتسم، أبتسم لها، أدعوها إلى الرقص فتوافق على الفور، تشبك يدها بيدى والأخرى على كتفى فأضع يدى الأخرى على

خصرها، أغرق فى بحر عينيها، فأترك نفسى تغرق، تطوق رقبتى بذراعيها، فتنقذنى من الغرق فى متاهات عقلى، تتقارب الشفاه وأحدثها:

- ما وظيفتك؟

- أدرس حاليًا الهندسة.. وأنت؟

- أنا محاسب.. محاسب متقاعد.

- فاروق.. تحدث بجدية.

- ليلى.. أنا دائمًا أتحدث بجدية، لكن على الرغم من سنى الصغير فأنا لا أبحث عن وظيفة جديدة.

- لكن كيف تكسب قوت يومك؟

- بالرسم.. أنا رسام.. أبيع لوحاتى بشكل جيد.. صحيح لم يلمع اسمى بعد إلا أن الجميع أشادوا بى وبموهبتى. على فكرة، يعجبنى ثوبك، يعجبنى اللون..

أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى على بعد ما يقرب من مائة متر عن المطعم الذى اعتدنا واتفقنا على أن يظل يشهد لقاءاتنا..

* * * * *

لم تكن الساعات التى مرت علىَّ حتى قابلت ليلى فى هذا المطعم الإيطالى سوى ساعات نضال بين حبى القديم لليلى وعشقى الجديد لجيهان، كنت أشعر أننى أنزلق بسرعة إلى الهاوية.. أننى أفكر فيها رغم أنفى.. أننى لا أستطيع منع تلك اللهفة المنبثقة من عينى نحوها عندما انضمت يدها إلى يدى تصافحنى، طالع كل منا الآخر، شعرت بالحنان والدفء يتدفقان من عينيها، وكأننا نلتقى لأول مرة:

- لى لى، أعتذر عن التأخير.

ابتسمت متأثرة بشدة كونى ناديتها باسمها المفضل لديها.

كنا نجلس إلى منضدة صغيرة متقابلين:

- لقد تركتك تنتظريننى، كان علىَّ الاطمئنان على جيهان قبل أن آتى إليك، فقد كانت بحاجة كبيرة لرؤيتى قبل عرض اليوم، لقد كانت مضطربة جدًا.

- هل العرض سيقام اليوم؟

- هل ستذهبين؟

- أنت تعرف.. أنا كاتبة أهتم بالكتابة ولست متذوقة لفن الباليه.

- أعرف ذلك جيدًا، عندما كنت ترفضين صحبتى إلى مثل هذه الحفلات، على الرغم من علمك بشغفى بها.

- لقد مرّ كثير من الوقت على ذلك.

- خمسة أعوام، أليس كذلك؟

- نعم..

أتى النادل فتركت لها حرية الاختيار بالنسبة لما أود أن أتناوله:

- ما آخر أخبارك؟

- تمام الحمد لله.. روايتى الأخيرة ترجمت إلى أربع لغات، ومرشحة لعدة جوائز..

- مبروك.. أنتِ كاتبة رائعة، وتستحقين أكثر من ذلك.

وضع النادل أمامنا فنجانين، فنجان الشاى الأخضر لى، وفنجان القهوة لها، كما طلبت ليلى بالضبط.

- لقد انتهيت من كتابة رواية جديدة، وبخصوصها اتصلت بك.

- رائعة.. أتعرفين كم رواية كتبتِ؟

- هل تهتم بالكم؟

- وما الضرر في ذلك؟.. أنا أسجل كل لوحة أرسمها فى دفترى الخاص، وأنتِ يجب أن تسجلى كل رواية وقصة ومقالة تكتبيها، حتى لا تطير من الذاكرة، إنه تاريخك.

- لا أهتم بمثل هذه الأمور..

- هل تودين رأيى في الرواية؟

- نعم.

قالتها وهى تومىء برأسها ثم استطردت قائلة:

- كنت أود.. لو كنت أنت.. من يرسم الغلاف.

* * * * *

ودعت ليلى ملوحًا لها بيدى عندما انطلقت بسيارتها وتركتنى فى بحر شرودى محللا حديثنا. ولماذا الآن تريد رسمى على غلاف من مؤلفاتها، هل تذكرت فجأة أنها كانت متزوجة لرسام، أم أنه الحنين لترانى، أما زالت تحبنى، لكن لماذا تزوجت، وأنا تزوجت، كان زواجها عِنْدا ليس إلا، وإلا لمَ لم يدم هذا الزواج سوى شهرين؟!

غمرتنى سعادة بالغة وأنا أتوصل أن ليلى ما زالت تحبنى، وإلا لمَ دعتنى؟

وبدأت أنتظر بفارغ الصبر لقاءنا القادم.

لفت انتباهى البوستر الضخم المعلق أمام قاعة العرض الذى يحمل صورة رائعة لجيهان، ولفت انتباهى الحضور الكبير، دلفت إلى الداخل وجلست فى الصف الأول على المقعد الذى تحمله تذكرتى، كان العرض على وشك البدء.

- VI -

- شكرًا للرب، لقد انتهى العرض، كان عرضًا غبيًا ومملا للغاية، وهى بدرجة لا توصف كانت مخيبة للآمال.

هكذا همست سيدة أعتقد أنها مسيحية إلى زوجها، كانت تجلس بجوارى عندما هبطت الستائر وأنا أحاول رسم ابتسامة عريضة على وجهى حتى لا تلقى جيهان نظرة علىَّ وينفضح مدى ضجرى أنا أيضًا من العرض.

لم أكن أعرف ماذا أقول لها عندما دخلت عليها غرفتها إلا إنها أنهت حيرتى بقولها:

- هل أنت جاهز للرحيل؟؟

- أجل..

- ثوان، علىَّ إزالة المساحيق من على وجهى وسوف نذهب..

- خذى راحتك ليس لدينا شىء نستعجل من أجله..

ساد الصمت لحظات.. قطعته قائلا وأنا أقترب منها وهى جالسة أمام المرآة ممسكة بمنديل تزيل به المساحيق بينما أضع يدى على كتفها العارى:

- عزيزتى لم يكن الأمر بهذا السوء فقد فعلتِ ما عليك فعله، اجتهدتِ.. لم تقصّرى، لذلك يجب أن نحتفل وننسى الأمر.

- لا أعتقد ذلك.. فاروق سأكون جاهزة فى غضون دقيقة لنرحل..

قطعت حديثها قائلا:

- لقد انتهى كل شىء..

- بالنسبة لك..

- لا بالنسبة لنا، نحن الاثنين..

حاولت التقليل من انفعالى وأنا أنزع يدى من على كتفها لأدور خلفها وأقول:

- عزيزتى، أنت بحاجة لتدريب كثير حتى تكونى رائعة..

- هلا توقفت عن هذا الحديث الآن..

دعكت طرف أنفى وحدثتها بهدوء قديس:

- لا أريد أن يراودك شعور اليائسين أمثالى، الموضوع لا يساوى صدقيني..

- حاضر.. لنكف عن هذا الحديث..

انخفضت حدة صوتى وطغت عليه طبقة من الحنان عندما قلت لها:

- حبيبتي.. لنتحدث بهدوء عما حدث..

فهبت فىَّ واقفة وهي تقول:

- لقد قلت لك لا أريد التحدث، أفهمت؟؟

لم أستطع التحكم بأعصابى وأنا أرد عليها فاندفعت فيها كقطار فُقدت السيطرة عليه:

- لا لم أفهم بعد.. فليس ذنبى أن العرض كان رديئا، ومن المؤكد أنه ليس ذنبى أنك لم تصبحى شيئا..

- اصمت.. هذا يكفي..

- لا.. لا يكفى.. أنا لم أعد أصلح لملائمة دور الأخرس الذى يجب عليه أن يسمع فقط.. أنتِ زوجتى ولى حقوق عليك، أفهمتِ؟؟ فأنتِ دائمًا تهتمين بنفسك فقط ولا تسمعين إلا صوتك..

- لدى ما يكفينى، لقد كنت واضحة معك، لا أريد مناقشة شىء الآن..

- حاولت أنا أبدو لطيفا، لكن صبرى نفد..

فقالت بسخرية وتهكم:

-يا لك من لطيف!! كل الرجال على شاكلة واحدة، قذرون لهم أظافر طويلة لن يتخلصوا منها أبدًا..

حاولت أن أستجمع أنفاسى وأسيطر على فمى وأجبر قدمى على الخروج من هذه الدوامة التى لن تنتهى، بعد ما صفعتها يدى الصناعية.. صفعتها

على خدها الأبيض، لتترك آثارًا على سحنتها، لكى تذكرها دائمًا بى كلما تطلعت فى المرآة..

* * * * *

أنظر إلى أصابع يدى الصناعية نظرة كارهة لما أحدثته، وحملتها الذنب الذى اقترفته فى حق جيهان. كلما أرى أطراف أناملى أتذكر وجهها الرقيق الذى طبعت عليه بصمات أصابعى وأتساءل:

- كيف تحملت جيهان الضربة؟؟ هل كُسرت أسنانها وتورم وجهها؟؟ كم هى يد ملعونة.

خبأت يدى الصناعية داخل جيب بنطالى حتى لا يقودنى الغضب إلى التخلص منها فى أقرب صندوق قمامة فيلتقطها أحدهم فيلهو بها أو يجعلها لعبة لطفله الصغير..

أفقت من شرودى فوجدت نفسى أقف أمام مطعم صينى بينما تدعونى فتاة يبدو من ملامحها أنها صينية إلى الدخول فطاوعتها ودخلت..

كان المكان بجملته صينيًا صرفا فى كل شيء، من الزى الصينى القديم الذى نشاهده فى الأفلام الصينية يرتديه كل العاملين الذين يبدو من

ملامحهم أنهم صينيون، إلى رواد المطعم الذين أغلبهم من الصينيين وبعض الجنسيات المختلفة القادمين من شرق آسيا، حتى إنه خُيل لى أننى لو خرجت من المطعم سأصدم بأن كل من بالخارج من الصين..

المطعم أنيق إلى درجة كبيرة رغم نظام فرشه العتيق فهو يحتوى على صفين من المقاعد، وست مناضد فى كل صف، وعلى كل منضدة حامل يحتوى على أوعية زجاجية للملح والتوابل والصلصة، والمكان أيضا مضاء بصورة كافية ومزدحم، تسمع المحادثات واصطكاك الأطباق فوق الحوار، وهناك رجل عجوز يجلس خلف مكتب الحساب لمحته بطرف عينى بينما تقودنى الفتاة الصينية إلى أحد المقاعد التى تشعرك أنك فى إحدى موائد الرحمن فى رمضان، انصرفت بعد ما أشرت إليها إلى صنفين من الطعام فى القائمة.. وما هى إلا لحظات حتى كان الطعام أمامي.

ابتسمت وهى تضع عينها فى الطبق الذى أمامها عندما شاهدتنى أعانى بتلك العصيان الخشبية. كانت امرأة تبدو من ملامحها أنها صينية إلا أننى عرفت بعد ذلك عندما اصطحبتها إلى شقتى أنها من ماليزيا وقد أتت إلى مصر من أجل الدراسة فى الأزهر إلا أن ضيق الحال قادها إلى أن تكون عاهرة، اكتفيت بذلك فقط عنها، أما أنا فلم أخبرها شيئا عن حياتى ولا حتى اسمي..

أدرت المفتاح فى فوهة الباب. كنت أتمنى أن تكون جيهان فى الداخل وتشاهدنى وأنا أضاجع واحدة غيرها على سريرها إلا أننى كنت على يقين أن جيهان لن تكون فى البيت بعد الذى حدث اليوم..

دلفنا إلى غرفة النوم فوقفت خجلى فى منتصفها محدقة فى بلاط الغرفة بينما وقفت على مقربة منها أخلع ثيابى وأشرت إليها بأن تخلع ثيابها فنفذت على الفور واندست تحت الغطاء وطلبت منى بلكنتها العربية المكسرة إغلاق الضوء وتشغيل مقطوعة موسيقية لموتسارت، لم أملك شيئا له فأدرت عوضا عنه بيتهوفن ثم تبعتها تحت الغطاء.

* * * * *

عندما استيقظت لم تكن بجواري. توقعت أنها سرقت نقودى مثلما يحدث دائمًا فى الأفلام العربية فخاب ظنى، فلم تأخذ إلا ما اتفقنا عليه وتركت الباقي. فكرت فى نوبة حب جديدة معها..

ألمح الشيش ذا الثلاث ضلف ينفتح. تدلف إلى البلكونة فتاة لم تتجاوز بعد عامها التاسع عشر تقف متأنقة بقميصها المفتوح نصف أزراره ليظهر قدر ليس بالقليل من صدرها المكتنز -أتذكر، شاهدتها مرة وهى تغير ملابسها وتتجرد من كل شىء يلامس جسدها الذى تتأمله فى المرآة

فتذكرت حبى القديم لجارتى شكرت، جارة الطفولة، فأخذنى الشوق إليها وتمنيت حينها رؤيتها- أراقبها من النافذة الزجاجية، تسوى خصلات شعرها الكارى ثم تحشر سيجارة فى طرف فمها، وتنفث منها على مهل مستندة على حافة البلكونة. فكرت أن أرمى نفسى من النافذة فترانى. تأتى ملهوفة نحوى، وتطوقنى بذراعيها مدفسة رأسى فى صدرها المكتنز.

أسدلت الستائر على النافذة لكن رغم ذلك تتسرب بعض أشعة الضوء التى تنتشر فى المكان. شعرت بالجوع يجتاحني. فتحت باب الثلاجة والتقطت بعض الساندوتشات التى تصنعها دائمًا جيهان وتتركها لى، وزجاجة نبيذ وقفت أمامها حائرًا فى الشراب الآن أم فيما بعد، فلا يزال أثر خمر البارحة عالقا فى فمى، خطفتها حتى أنهى حيرتى وتحركت نحو السرير، جلست على طرفه أتناول الطعام الممزوج بشراب النبيذ الأحمر. تعلق بصرى بذبابة تزحف أمامى على الأرض تتحرك بين برك قطرات النبيذ الذى تساقط من فمى، أنظر إليها محملقا فى تصرفاتها غير المتزنة بعد أن غفاها السكر، لكزتها بأصبعى فطارت وتابعت بإحساس متبلد رحلة الذبابة فاقدة الوعى حتى غابت عن نظرى..

- VII -

أشارت الساعة إلى الرابعة بعد الظهر عندما فتحت لى ليلى باب شقتها، كانت ترتدى بيجامة نومها التى تختبىء تحت روبها الحريرى الأحمر:

- مساء الخير..

- مساء الخير..

- لقد جئت حسب الميعاد..

- أهلا بك.. تفضل..

انطلقت أمامى فتبعتها حتى جلست داخل الأنتريه على مقعد فى زاوية الغرفة فجلست بالمقعد المجاور لها. تبادلنا كلمات الترحيب المعتادة ثم سألتني:

- كيف تسير الأمور؟؟

- بخير.. لماذا لا أرى ابنتى؟؟ أين ذهبت؟؟

- إنها نائمة.

- لم أرها منذ مدة طويلة.

- ماذا تحب أن تشرب؟؟

- أى شىء..

- أوكيه.

انطلقت حتى دلفت داخل غرفة وما لبثت غير ثوان حتى خرجت ومعها رزمة من الورق المدبس من طرفه ووضعته أمامى ثم توجهت إلى الدولاب المجاور للنافذة وأخرجت زجاجة من النبيذ الوردى وسألتني:

- ثلج كما كنت تحب..

- نعم.. أمازلتِ تذكرين!!

وضعت كأسين، واحدا بالصودا لها وآخر بالثلج لى ثم جلست إلى مقعدها وقدمت كأسًا إلىَّ رشفت منه ببطء ثم وضعته أمامي:

- بيتك الجديد جميل جدا، كما كنتِ دائمًا..

- شكرًا.

وكأنها تخشى فتح موضوع ما فحولت دفة الحوار بسرعة البرق:

- هذه هى الرواية التى حدثتك عنها - تشير إلى رزمة الورق.

التقطتها بين يدى متأملا العنوان (لحظات يأس).

- العنوان جذاب.. بداية جيدة..

- أتمنى رأيك فى الرواية بصراحة كما كنت دائمًا.. أتذكر؟؟

- لن تزعجك آرائي..

ـ لا لن تزعجني..

مدت يديها وأمسكت بكأسى ورفعته نحوى وهى تعض شفتيها السفلى بحركة خاطفة، نظراتها راغبة فى شىء ما.

مددت يدى فلمست يدها، أطبقت عليه لم تفعل شيئا، لم تسحب يدها، لم تصرخ في:

ـ أنا مشتاق إليك.

ـ حقا؟

ـ نعم..

تبادلنا القبلات بنهم، ثم أخذت بأطراف يدى اليسرى أمسح على شعرها بينما ذراعاها يطوقان خصرى..

* * * * *

غصنا فى نوبة حب. تأوهات لا تكف عنها ليلى وتفوهها بالكلمات لا ينتهى:

ـ نعم! يا إلهى! أنا أحب ذلك..

ـ تحبين دق المسامير..

ـ نعم! أنا أحب ذلك، أعطنى مسمارك يا ملكي..

* * * * *

استلقينا منهكين عاريين على ظهورنا بعد ممارسة المتعة التى لم تدم أكثر من ربع ساعة:

ـ هذا بالضبط ما كنت أحتاج إليه، العلاج الملكى كما يقولون..

ـ سعيدة حقا.

ـ نعم..

اتكأت ليلى على مرفقها وهى تنظر نحوى ثم قالت:

ـ دعنا لا نفترق مرة ثانية لا أريد أن أكون بعيدة عنك..

ضممتها إلى صدرى قائلا:

ـ أنا سعيد جدًا لأننا عدنا إلى بعض..

ـ وأنا أيضا..

ـ أين كانت هذه الرواية من زمان؟.. وحشتنى جدًا..

ـ ....

فتح الباب دون سابق إنذار فارتعدنا. دخلت، نظرت إلينا وخرجت مسرعة.. شعرت بفداحة ما فعلنا.

ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟

- VIII -

تأتى بى الأفكار وتقذفنى مرة أخرى.

خلعت ملابسى ووضعت عليها رزمة الورق التى أخذتها من ليلى بعدما عدت إلى البيت مسرعًا. أحسست بشىء من البرد رغم حرارة الجو. تناولت فنجان قهوة داخل مرسمى الصغير فهدأت وحدثت نفسى قائلا:

- ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟؟

- لا شىء..

- لكنها رأتنى عاريًا مع أمها..

- أنت قلت.. أمها..

- لكن..

- الطفلة لا تعرف شيئا بعد فهى لم تتجاوز عامها الثامن.. أتذكر ذلك؟؟

حاولت نسيان الموضوع وبدأت أفكر فيما هو مطلوب منى وتذكرت أهم شىء المقال الذى أكتبه لمجلة الفن التشكيلى فقررت إنهاءه. بحثت عن الكتاب الذى أستعير منه بعض القطع التى أضيفها إلى مقالاتى فلم أجده، بحثت عنه فى كل مكان ولا فائدة إلا مكانا واحدا، أدراج مكتبى الذى لم أجلس إليه منذ زمن بعيد لعله فى أحدهم. فتشت فلم أجد شيئا لكن لفت

نظرى أن درج المكتب الأخير مغلق فبحثت عن مفتاحه حتى تذكرت أننى وضعته ملاصقا لظهر إحدى اللوحات.

فتحت الدرج بهدوء فهب الماضى علىَّ من حيث لا أدرى ورأيت صورًا عدة لى كنت أحتفظ بها لوقت كهذا. كانت صورًا عدة جمعتنى مع أمى وأبى وأنا طفل لم يتجاوز عامه الأول، وصورة مع أصدقاء الدراسة، وصورة لهتلر كنت قد كتبت على ظهرها "مصر فوق الجميع"، وأخرى مع مروة زميلتى فى الكلية عندما كنا فى إحدى الرحلات التابعة للجامعة. مروة كانت رسامة بارعة، التفوق التصق بها أينما ذهبت، التفوق فى كل شىء، حتى كتابة الشعر كانت بارعة فيه. عانيت كثيرًا حتى استطعت التحدث إليها. أتذكر، ظللت أكثر من عامين أفكر كيف يكون الحديث الأول الذى يظل فى الذاكرة ولا يمحوه الوقت، حتى أتت الفرصة فتمكنت منها وفرضت شخصيتى عليها.

يااااااه.. رغم ما مر من سنين ما زلت أتذكر أول قبلة فى حياتى كانت منها؛ أخذتنى بين ذراعيها وقبلتنى، كنت أحلم بهذه اللحظة كثيرًا وانتظرتها أكثر. كان اللقاء فى بيتها داخل غرفتها جلست بجوارى وأنا منهمك فى رسم لوحة الموناليزا فالتصقت بى ولفحنى زفير أنفها الدافىء، تلامست يدانا فتلاقت أعيننا وكأننى أحصل على دفعة قوية منها لكى أفعل

ما أريد وأتسيد أنا الموقف، قبلت شفتيها بعنف محركا رأسى من جهة إلى أخرى بشكل شبه منتظم وخارج عن السيطرة كما يحدث فى أفلام الأبيض والأسود حتى شعرت بلسانى يلامس لسانها.

جذبنى صوت رنين الهاتف المنبعث من جيبى، كانت ليلى هى المتصلة:

- أهلا ليلى.. كيف تسير الأمور؟؟

- جيدة لكن..

قالت مترددة..

- ماذا؟؟

- ابنتك.. سلاف لا تريد الذهاب إلى المدرسة غدًا.. لقد أعلنت العصيان..

- لماذا؟؟

- لأنها تود أن تذهب معها غدًا..

- أين هى؟؟

- فى غرفتها رافضة الحديث معى..

- لا عليكِ، غدًا سأكون عندك لكى أصطحبها إلى المدرسة..

- أوكيه.. لا تتأخر..

- لا تقلقى..

- باى..

- باى..

* * * * *

عزيزى الأستاذ فاروق.

أعرفك بنفسى..

الاسم: جومانة محمود.

السن: ٢٥ عامًا.

المهنة: فنانة تشكيلية.. مثل حضرتك..

على فكرة أنت لا تعرفنى ولم نتقابل من قبل، لكن أنا أعرفك جيدًا، أعرف كل شىء عنك، حتى زوجتك الفنانة جيهان أعرفها، لقد كنت فى العرض الذى أقيم مؤخرًا، كان رائعًا. وأعرف عنك أنك أهم فنان تشكيلى فى مصر فى الوقت الحالى. أنا متابعة كل كتاباتك فى الصحف والمجلات وعلى فكرة أنا رسمت حوالى 200 لوحة من أعمالك، تقدر تقول عنى إننى من أشد المعجبين بحضرتك وبفنك الراقى، وبسبب ذلك:

أتشرف بدعوة حضرتك لحضور معرضى الأول والذى سيقام بعد أسبوع. أما المكان فهو آخر مكان أقمت فيه معرضك، وأما الميعاد فهو أيضا نفس ميعاد معرضك الأخير. آراؤك تهمنى جدًا.. رجاء لا تخذلنى.

جومانة

* * * * *

كان شىء غريب بالنسبة لى أن تأتينى رسالة عبر البريد الإلكترونى، وأى رسالة، إنها فتاة تدعونى لحضور معرضها الأول وتود حضورى، أخيرًا تذكر أحد أن هناك فنانا يدعى فاروق عزام.

* * * * *

عزيزتى جومانة: كونى واثقة أن فاروق عزام لا يخذل أبدًا معجبينه، خاصة إذا كانت الدعوة قادمة من فتاة تبحث عن المجد فى الفن التشكيلى. سأكون أول الحاضرين..

تقبلى تحياتى.. فاروق عزام

* * * * *

أغلقت جهاز الكمبيوتر بعدما شعرت بالنعاس وعدم القدرة على فتح عينى. اتجهت إلى غرفة نومى واندسست تحت الغطاء وقبل الغوص فى النوم أرسلت رسالة قصيرة إلى جيهان أعتذر فيها عما حدث ثم ضبطت منبه الهاتف على السادسة صباحًا.

* * * * *

أحلام أم كوابيس؟؟ لم أدر..

قطرات من الدماء تسيل من جفن ابنتى سلاف، تسقط القطرة من جفنها فتتهادى على خدها -وهى تبتسم- حتى تسقط على طرف حذائها. ويتكرر هذا كلما أنظر إليها!!

- IX -

لم أكن أعرف أن الوعد سوف يتحول إلى عادة يومية.

عندما اصطحبت ابنتى سلاف إلى المدرسة ممسكا بيدها حتى الباب إلى أن سحبتها منى، كنت محاطا بأفواج من الآباء والأمهات الذين يوصلون أبناءهم إلى المدرسة ولا أعرف كيف خرج هذا الوعد من فمى عندما ناديت عليها وهى تصعد الدرج:

ـ سأنتظرك أمام المدرسة حتى ساعة الانصراف.

وبالفعل أوفيت بوعدي. ظللت جالسًا على إحدى الدكك الخشبية المنتشرة فى المكان. كان إحساس مدفوع من تقصيرى نحوها، خاصة عندما حكت لى ونحن فى السيارة كيف كانت تشعر بالوحدة فى الحفلات المدرسية ولا تجد أحدًا يذهب معها فى عطلة نهاية الأسبوع، حتى وهى تقوم بفروضها المنزلية كانت تشعر بالوحدة فلا تجد أحدًا يساعدها ويذاكر معها دروسها، فأمها ليست متفرغة لها فهى مشغولة بكتابتها وندواتها التى لا تنقطع أبدًا.

ـ عندك حق يا ابنتى لقد قصرت فى حقك كثيرًا.

تركت كل شىء حولى وركزت فى شىء واحد هو ابنتى وكيفية تعويضها عن سنوات الغياب عنها مع تواصل رسائلى اليومية لجيهان.

* * * * *

أبقى طول اليوم منتظرًا خروج ابنتى من المدرسة لاصطحابها إلى البيت. انتظارها أتاح لى أن أتأمل ما يدور حولى، أتأمل الناس ومشاكلهم بينما قبل ذلك كنت لا أرى -إلا فى حدود ضيقة- فرضها السريان العادى للأحداث التى نعيشها..

أقضى معها الوقت فى قراءة قصص الأطفال واللعب والدخول فى حوارات ومشاكسات لا تنتهى سوى ساعة سقوطها فى النوم. لقد قادتنى ابنتى إلى مفهوم جديد لمعنى الحياة وأبعادها.

* * * * *

أغلقت ليلى خلفى الباب بعد ما ودعتها بلصق قبلة على شفتيها:

ـ لا تنس موعدنا.. سأنتظرك..

أومأت بابتسامة. أدرت ظهرى إليها، ووقفت أمام المصعد ضاغطا على زر الاستدعاء، لم يلبث سوى ثوان حتى كنت فى الداخل ضاغطا على زر الطابق الأرضى (زيرو)، أغلقت باب المصعد ثم هبط حتى توقف..

* * * * *

عدت إلى البيت، خلعت ملابسى باستثناء ملابسى الداخلية والجوارب كالعادة، جلست أمام شاشة الكمبيوتر أتصفح بعض المواقع الرياضية والفنية وأطالع ما وصل إلى بريدى الإلكترونى من رسائل وكأنى كنت أنتظر رسالتها..

* * * * *

عزيزى الأستاذ فاروق

كنت أود أن أذكرك بموعد معرضى، إنه فى العاشرة، والمكان أنت تعرفه جيدًا..

جومانة

* * * * *

عزيزتى جومانة

أتذكر موعدك جيدًا وسأكون أول الحضور..

فاروق عزام

* * * * *

سيطر علىَّ فضول مغلف بالتشويق لرؤية هذه الفتاة التى تراسلنى والتى تدعونى إلى معرضها الفنى غدًا. يا ترى ما شكلها؟ خشيت أن أرسم لها صورة فى ذهنى فيصدمنى الواقع.

أغلقت الجهاز واتجهت نحو مرسمى الصغير أكمل لوحتى التى ما زالت فى مرحلة النمو لعلنى أنهى على الأقل الهيكل..

ارتعش الهاتف فأعلن وصول رسالة جديدة كانت من جيهان، كانت تود مقابلتى الآن فهى على وشك الوصول إلى منزلى، ارتديت ملابسى وانطلقت..

* * * * *

وقفت أنتظرها واضعًا يدى اليسرى فى جيبى واليمنى الصناعية فى الخارج وكأننى أعلن لها أنها ليست بحاجة إلى التدفئة. اقتربت سيارة جيهان فى بطء حتى وقفت أمامى فانزلقت داخلها. ظلت السيارة واقفة.

كان حديثنا صامتا تتبادله العيون ويترجمه القلب لم يكسره إلا صوتها المرهق:

- فاروق أنا.. أنا آسفة..

- جيهان لا عليكِ.. لم يحدث شىء.

- لقد كنت فى حالة سيئة.. لقد أسأت إلى كل من حولى وأنت أولهم، أنا بجد آسفة.. فاروق لا أستطيع أن أعيش بدونك..

- وأنا أيضا. أنتِ تدركين ذلك جيدًا، هيا نصعد إلى شقتنا نكمل فيها حديثنا، لقد اشتاق المكان إليك..

- فاروق.. إننى فى حاجة إلى أن أبتعد بعض الشىء.. سأسير بعيدًا. أريد العزلة.

- ألم يكفكِ ما فات؟؟

- أريد الانتقال إلى مكان آخر..

- إلى أين؟

- أى مكان أختبىء فيه..

- عزيزتى أنتِ تعيشين فى القاهرة، إنها أشبه بالغابة، غابة هادئة وصاخبة. يستطيع الإنسان أن يختبئ فيها.

- فكرت فى هذا فعلا لكن أهذا قرار جيد بالنسبة لى؟ فاروق أنا أبحث عن شىء غامض، شىء داخلى..

انطلقت سيارتها وأنا أتأملها لعلها المرة الأخيرة التى نلتقى فيها. صعدت إلى شقتى، جذبنى الفراش فسقطت قتيلا.

* * * * *

فى الصباح..

ذهبت كالعادة إلى ابنتى، أوصلتها إلى المدرسة وظللت فى انتظارها حتى خرجت ثم اصطحبتها إلى البيت وقضيت معها بعض الوقت ثم تركتها بمفردها فى البيت، فأمها لم تكن موجودة فيه، كنت أعتقد أنها سوف تطلب منى البقاء إلى أن تعود ليلى لكن هذا الاقتراح لم يكن فى تفكيرها على الإطلاق فقد اعتادت على ذلك. ضممتها إلى صدرى ثم طبعت قبلة على خديها وخرجت محكما إغلاق باب الشقة خلفى.

* * * *

عدت إلى البيت، كانت الساعة تقترب من الخامسة، قضيت ثلاث ساعات ما بين كتابة مقالى الأسبوعى لمجلة الفن، إكمال رسم اللوحة الألف، قراءة جزء من رواية ليلى الجديدة ومطالعة البريد الإلكترونى الوارد ثم بعثت برسالة إلى ليلى أعتذر فيها عن موعدنا.

اتجهت بعد ذلك إلى دولاب ملابسى وأخرجت بدلة سهرتى لهذه الليلة. كانت تبدو مقرمشة والثنيات منتشرة فيها بصورة مفزعة، فردتها على الطاولة المخصصة للكى متكئا على أطراف البدلة بأطراف أصابعى واليد الأخرى ممسكة بالمكواة ضاغطة عليها بقوة وهى تروح وتجىء.

- X -

فى تمام الساعة العاشرة كنت أمام معرض اللوحات فى موعده المحدد بعدما هبطت من التاكسى، وتذكرت آخر معرض عرضت به لوحاتى، كان يومًا رائعًا، كان الحاضرون كثيرين مثل اليوم. كنت هادئا، أنيقا، أسير بخطى واثقة، أعتقد أن هذه هى الحالة التى كنت عليها.

لم يكن أحد فى استقبالى فدخلت. كان كل الحاضرين متأنقين، روائح عطورهم تختلط وثيابهم فاخرة.. فأحسست برداءة ما أرتديه. لفت انتباهى تلك الفتاة التى توحى ملامحها وملابسها الأنيقة بأنها فى العشرين من العمر منهمكة فى الشرح والمناقشات مع الحضور أمام اللوحات، تمر على اللوحات واحدة واحدة تشرحها وتناقش إبداعها بسعادة بالغة.

عندما لم أجد أحدًا أناقشه وقفت أمام تلك اللوحة، كانت اللوحة لفتاة تجلس على مقعد وهى ترتدى زيا كلاسيكيًا يعود إلى بدايات القرن العشرين، ترتدى فستانا أبيض يصل حتى القدمين بينما تضع يديها على فخذيها، أما نظرات عينيها فكانت تحمل تعبيرًا أقرب إلى اليقين.. إلى الرضا بما يحدث. ظللت واقفا أمامها شاردًا أتخيل مكانها جيهان وأحيانا كانت تطفو ليلى مكانها وكأننى حائر بينهما، لكن ليلى لم تعد تلك المرأة

الفاضلة التى كنت أحبها، لقد فعلت الخطيئة معى ونحن منفصلان كيف وافقت بهذه السهولة؟

فرغت الفتاة مما فيه ثم دلفت إلى آخر المعرض، تقف أمام إحدى اللوحات تسوى شعرها بخجل وتضع ذراعيها متقاطعين على الجوب الذى لا يصل إلى الركبة.

- هل تعجبك اللوحة؟؟

لا أعرف كيف انجذبت إليها بهذه السرعة، ولا أعرف كيف وقفت خلفها وألقيت عليها سؤالى.

- فاروق.. أستاذ فاروق.

قالتها والابتسامة تكسو وجهها..

- جومانة.. أليس كذلك؟؟

- نعم.. أهلا بك أستاذ فاروق.. لقد أسعدنى وجودك..

- أنا الأسعد لأنكِ منحتنى فرصة لن تعوض، لقد أعجبنى المعرض.. اللوحات رائعة. أنتِ فنانة حقيقية.

- إشادة أعتز بها. هذه أول شهادة أنالها من أستاذ كبير مثلك.

- ليست إشادة إنها الحقيقة. لقد عبرتِ عن أوجاع المجتمع بأسلوب راقٍ وغير مبالغ فيه.

*** * * * ***

انقضى الوقت بسرعة كبيرة، وهممت بالخروج، تناولت سيجارة من علبتى نظرت إليها ثم أعدتها إلى مكانها وضعتها في جيبي وانطلقت.. وقبل أن أهم بالإشارة إلى تاكسى جاءنى صوت جومانة، عندما شاهدتنى استدارت نحوى قائلة:

- تصبح على خير..

- وأنتِ أيضا..

- حسنا.. إلى اللقاء..

قالتها ويداها متشابكتان أمامها وهى تبتسم.

فتنحنحت قائلا:

- أنتِ ترسمين بشكل جيد.. جيد جدًا..

- وكذلك أنت.. أنت مثلى الأعلى.

- أترغبين بتوصيلة..؟؟

- أ.. أ.. أنت معك سيارة؟؟

قالتها وهى تضع سبابتها على فمها.

- كلا.. كنت سآخذ تاكسي.

- هههههه.. كلا أنا أملك سيارة، أترغب أنت فى توصيلة؟..

- كنت أعتقد أنك أنتِ التى تريدين توصيلة، كان منظرك يوحى بذلك.

- عندى هذه السيارة الصغيرة، إنها هناك..

قالتها وهى تشير نحو سيارة إسبيرانزا فضية اللون..

* * * * *

أنزلت الزجاج ضاغطا بسبابتى على زر هبوط الزجاج إلى أسفل، بينما انطلقت جومانة بسيارتها بهدوء:

- كان لدى سؤال، أتمانع؟؟

قلتها والابتسامة تعلو الشفاه.

- كلا.. تفضلي..

- لماذا لا تمتلك سيارة؟؟

- لدى بعض المشاكل مع القيادة..

- حقا..!!

- نعم.. أنا أمتلك رخصة لكن.. عندى الكثير من السرحان أثناء القيادة..

- ممممممممم

- سيارتك جميلة جدًا..

اندمجنا فى الحديث عن الفن التشكيلى وعن اللوحات وتطرقنا إلى الحديث عن حياة كل منا الخاصة وعرفت أنها فتاة وحيدة نشأت يتيمة اعتمدت على نفسها فى إنهاء دراستها مع بعض المساعدات من عمها الذى رفع يده عنها عقب إنهائها للمرحلة الجامعية وإلحاقها بوظيفة سكرتيرة فى إحدى شركات السياحة، وقد سبق لها الزواج من زميل لها فى الجامعة إلا أنه لم يستمر كثيرًا، واكتشفت أنها تعرف عنى الكثير، فهى تعرف ليلى وجيهان وحتى ابنتى سلاف، مما أصابنى بالحيرة وجعلنى أفكر فى ذلك بعدما ودعتها تحت باب البناية التى أسكن بها واتفقنا على المقابلة مرة أخرى..

هل ترعرعت تلك الفتاة فى إحدى اللوحات؟

- XI -

حبيبى فاروق، أعلم أنك تحبنى على الرغم من التوتر الذى ساد علاقتنا وأعلم أنك قادر على الصمود بدونى. كن قويًا يا عزيزى كما عهدتك دائمًا..

إلى اللقاء..

جيهان.

نفر الدم فى عروقى وارتعشت أصابعى، وأنا أقرأ رسالة جيهان التى بعثت بها لى على الهاتف فرميته على حافه السرير وانطلقت..

*** * * * ***

كانت الساعة تشير نحو الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما صعدت سلالم البناية التى تسكن فيها جيهان ودسست المفتاح فى فوهة الباب، وأدرته بسرعة لأتجمد برهة من الزمن وأنا أتأمل الغرفة التى بها جيهان، كانت غرفة عارية وملابس نوم مهملة وفتاة ذات شعر أسود ملقاة على الأرض بجوارها الهاتف.

- جيهان.. جيهان.. ماذا حدث يا حبيبتى؟ ماذا فعلتِ؟

ارتميت عليها، ضممتها إلى حضنى وأنا أردد اسمها، وما إن رفعتها إلى صدرى حتى وجدت شريطا من الحبوب فارغا، مسحت على شعرها وقد تصبب العرق من كل أجزاء جسدى وأنا أردد:

- يا لكِ من مجنونة.. ماذا فعلتِ؟؟ جيهان أجيبى؟؟

أمسكت هاتفها بيدى المرتعشة واتصلت بالإسعاف.

- لا تخافي.. تماسكي.. سوف أنقلك من هنا.. لكن لماذا؟؟ أخبرينى.. أنتِ مجنونة، هل تريدين تحطيمى؟؟

حملتها وخرجت بها إلى الشارع أنتظر سيارة الإسعاف..

- في المرة القادمة سأتركك تموتين.. أفهمتِ ؟؟

*** * * * ***

بعد ساعتين كانت جيهان راقدة فى إحدى الغرف الخاصة بعدما خرجت من غرفة العمليات وقد مالت بوجهها تجاه الباب لتصطدم العيون ببعض، كان يبدو عليها الحزن والإنهاك..

الطبيب : لا داعى لإرهاقها، تستطيع أن تعود بها إلى المنزل بعد ساعتين.

جلست بجوارها وقد بدا عليا التأثر الشديد، لقد حاولت الانتحار وأعلم أنها غلطتى.

- جيهان.. حمدًا لله على السلامة..

لم تنظر نحوى وأنا أحدثها.. أمسكت يدها ثم قبلتها.

- جيهان لما فعلتِ هذا؟؟

حركت رأسها إلى الاتجاه الآخر لتخفى وجهها وتبدأ فى بكاء صامت..

* * * * *

عدت إلى البيت فى تمام الرابعة صباحًا بعدما أوصلت جيهان إلى منزلها واطمأننت عليها.

أوصلت هاتفى بالشاحن الكهربى.. استلقيت على السرير واضعًا يدى تحت رأسى، بعينين مفتوحتين تحدقان فى السقف أسترجع أحداث هذا اليوم الغريب الذى بدأ بفرحة وانتهى بدمعة. ظللت هكذا حتى أخذنى النوم.

كانت هى.. جيهان.. تجلس على حافة بحيرة صغيرة، تغوص أطراف أقدامها فى الماء، وجهها مختبىء خلف يديها يخفى دموعها، بينما كنت أنظر إليها من الضفة الأخرى، غير مدرك ما الذى علىَّ فعله.

استيقظت على صوت الرسائل الواردة إلى هاتفى:

** أبى.. لماذا لم تأتِ هذا الصباح لكى توصلنى إلى المدرسة؟؟ لقد انتظرتك كثيرًا.. أتمنى أن تكون بخير.. سلاف.*

** أستاذ فاروق لا تنسَ موعدنا.. أنا أنتظرك فى البيت.. رجاء لا تتأخر.. جومانة.*

** أستاذ فاروق فى الرابعة من مساء اليوم موعدك مع الدكتور مجدى، رجاء لا تتأخر.*

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة فلم يكن أمامى الكثير حتى أتناول الإفطار، فاكتفيت بكوب من الشاى الأخضر. اتجهت إلى خزانة ملابسى وارتديت قميصًا أبيض بياقة ينتهى داخل بنطال أسود من القماش وغاصت قدمى داخل حذائى الأسود المدبب..

- XII -

فى الرابعة وخمس دقائق كنت ممددًا على المقعد الطويل فى عيادة الطبيب النفسى وثمة موسيقى خفيفة تتردد حولى وإضاءة خافتة تنبعث فى المكان والطبيب يجلس بجوارى يسجل كل ما أقوله فى دفتره الصغير ناظرًا فى وجهى منتبهًا لتعبيراتى:

ـ أعتقد أن هذا ما حدث.. أو..

ـ أكمل.. لماذا توقفت؟؟

ـ لم يعد عندى ما أقوله..

ـ كيف؟؟ أنت لديك الكثير..

ـ من قال ذلك؟؟

ـ أنت..

ـ أنا لم أقل شيئا، أتشكك فى قدراتى العقلية؟..

ـ لا.. فقط شعرت بذلك..

ـ شعورك ليس بصادق..

ـ من قال ذلك؟ أنا أشعر بك.. فساعدنى حتى أستطيع مساعدتك..

ـ ليس عندى شىء أقوله الآن..

ـ فى مثل حالتك يحاول المريض أن يهرب من الواقع ومن مواجهة الحقيقة.. أعلم أنك شخص قوى وعندك القدرة على الخروج من هذه الحالة وأعلم أنك هنا لكى أساعدك فيجب أن تساعدنى..

ـ صدقنى ليس عندى ما أقوله..

ـ ليست هناك مشكلة. نحدد موعدًا آخر..

* * * * *

قلب هذا الطبيب المواجع علىَّ وغيّر مزاجى تمامًا بكلامه غير المسئول.. لماذا يريد أن ينبش فى الماضى دائمًا؟؟ لكنه محق فى كل كلامه، لقد ذهبت إليه طالبًا المساعدة وهو يقوم بواجبه على أكمل وجه، أنا الذى أرفض مساعدته. كم أنا شخصية عنيدة لا تعرف ما الذى تريد. أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى واقفا أمام إعلان ضخم موضوع على وجهة إحدى الصيدليات "الفياجرا لحياة زوجية سعيدة".

* * * * *

هناك الكثير من الكتب واللوحات الموضوعة على الحائط الأبيض.

هذا أول شىء لفت نظرى عندما استقبلتنى جومانة داخل شقتها وقادتنى إلى الأنتريه حيث جلسنا:

- ماذا تود أن تشرب؟؟

- أى شىء.. مثلما تحبين..

قامت من مجلسها واتجهت نحو البار تعد كأسين فلاحظت فستانها القصير الرمادى المشجر بالورود من نفس اللون دون أكمام والصدر مستدير تحليه شراشيب طويلة تبدأ من فتحة الرقبة المستديرة حتى أسفل الوسط، أما شعرها فكان مدرجًا وهو الشعر بين بين، فبعض خصلاته طويلة والبعض الآخر طويل محيط بالوجه، أتت تحمل كأسين فتناولت واحدًا.

- أتعرفين ماذا أريد أن أفعل الآن؟؟

- ماذا؟؟

- أريد أن أرسمك، أرسمك وأنتِ هكذا سعيدة، فوجهك من الوجوه النادرة التى تشعرنى بالسعادة. أتحبين فان جوخ؟؟

- لماذا تسأل؟؟

- لاحظت أن معظم لوحاته منتشرة فى أنحاء الشقة..

- نعم.. فان جوخ مثلى الأعلى وقصة حياة مثيرة للشفقة والألم..

- لكنه شخصية متقلبة و.....

أشرت بأصابعى إلى ناحيتين من رأسى موضحًا أنه كان مجنونا..

- لكنه رائع فى التعبير عما بداخله.. أنا أستشعر ذلك من لوحاته..

- تعرفين أنه قطع أذنه اليسرى بواسطة شفرة حلاقة وقدمها هدية لحبيبته.. منتهى الجنون..

- بل قل منتهى التعبير عن الحب..

- هناك الكثير من الرجال لا يستطيعون التعبير عن حبهم على الرغم من أنهم أكثر رومانسية من آخرين..

- أتفق معك.. لكننى لا أحب الرجل الخجول..

- هذا ليس خجلا.. إنه وقار وهيبة.. الرجل اعتاد طول عمره أن يكون هو القوى.. هو من يدافع وينتصر.. لكن فى الحب الرجل يكون ضعيفا، ضعيفا جدًا وهذا ما لا يقبله الكثير من الرجال.. لذلك أحيانا يصعب عليه أن يعبر عن حبه حتى لا يقلل من شأنه..

- ليس مبررًا مقنعًا.. المرأة لن تذهب إلى حبيبها وتقول له أحبك، هو من يجب أن يبادرها..

- أرى أنك أخذتِ الموضوع بعصبية.. أكملى كأسك، أنا لم آتِ إلى هنا من أجل النقاش بل من أجل الاستمتاع..

- نعم علينا أن نستمتع..

فرغت الكؤوس.. فقامت جومانة وأحضرت الزجاجة وسكبت لى ولها وقد بدأ أثر الخمر ينتشر فى عقلي..

- أتعرفين؟؟

- ماذا؟؟

- أنتِ شديدة الإثارة..

- كلا.. أنا لست كذلك..

- أنتِ منحرفة بأشكال متعددة.. مثيرة جنسيًا بشكل غير عادي..

- ماذا تقصد؟

- أنتِ خارقة فى السرير.. تملكين السعادة فى كل جزء من جسدك..

- ....

أمسكت بذراعيها واقتربت من أنفها واضعًا قبلات عدة ابتداء من جبهتها نزولا إلى شفتيها.

- لا أنكر أننى معجبة بك، لكن هل تحبنى؟؟

- الإعجاب بداية الحب..

- أعرف أنك عرفتنى منذ فترة قصيرة، لكننى أعرفك منذ زمن طويل..

لففت ذراعى حول رقبتها وقبلتها، أقبل أجزاء من عنقها وهى تقبل مواضع من رأسى إلى أن تتقابل الشفاه فنغوص فى قبلة حارة طويلة لم تعن لى سوى الاستسلام التام للذة.. رفعتها مفرودة على ذراعى إلى غرفة نومها..

* * * * *

بعد نصف ساعة أسندت ظهرى إلى السرير بينما جومانة مستلقية برأسها على صدرى صامتة يهبط صدرها ويعلو وأطراف أناملها تداعب بطنى..

- لقد أزحتِ عنى مشاكل كثيرة كنت أفكر بها.. أنتِ رائعة..

رفعت عينيها مبتسمة من حديثى، ثم أمسكت بيدى وقبلتها فى بطنها..

- أنت كذلك أنسيتنى أشياء كثيرة..

- أتعرفين.. أنتِ تثيرين إعجابى، لا أعرف كيف توفقين بين الرسم والسياحة؟؟

- ببساطة الرسم لى هواية ليس أكثر أما السياحة فهى مصدر قوتى..

- لكنك موهوبة فعلا، من الممكن أن تكونى فنانة كبيرة ذات صيت عالمى..

- لا أهتم بذلك ولا أفكر به..

- إذن.. لماذا قمتِ بعرض لوحاتك؟؟

- لكى أراك..

- هههههه.. كان يمكنك أن تتصلى بى أو تبعثى لى برسالة على الإيميل، ولا تغرمين كل هذه المصاريف..

- عندما تفعل شيئا جيدًا بعدما بذلت به مجهودًا خرافيًا تشعر فى لحظة ما أنك فى حاجة إلى كلمة شكر، هل شعرت بهذا الإحساس من قبل؟

وكأنى أتجاهل سؤالها، مددت يدى نحو بنطالى الملقى بإهمال على الأرض بجوار السرير وأخرجت علبة سجائرى.

- أتريدين سيجارة؟؟

- ولمَ لا؟.. أعطنى واحدة.. لكن أشعلها بنفسك..

نفذت رغبتها وأشعلت سيجارة ونفثت منها ثم وضعتها بين شفتيها.. ثم أشعلت واحدة أخرى لى.

- أتعرف؟ حاولت كثيرًا التغلب على تلك الرغبة فى التدخين والتلذذ بنفث الدخان فى الهواء عقب ممارسة الحب..

- أعتقد أن الجميع يفعل ذلك..

- عندما كنت فى سن صغيرة، كنت أسرق السجائر من علبة أبى وهو نائم وأنفثها فى غرفتى فى الظلام الدامس.. كانت لحظات مسروقة جميلة جدًا.. أتعرف كان أبى يضربنى على وجهى إذا لم أرتجف تجاه ذكر الله..

قالت جملتها الأخير بنبرة يائسة، وكأنها تتذكر الآلام، فحاولت تغيير الأجواء..

- ألا تذهبين إلى العمل؟؟

- أذهب، لكننى اليوم بقيت لكى أنتظرك..

- لماذا تعطلين نفسك من أجلى؟؟

- لا داعى لذلك، أنت عندى أهم من أى شىء..

- ما طبيعة عملك؟؟

- أتولى العلاقات العامة، تنظيم برامج الأفواج، مواعيد وصول ومغادرة السياح، مشاكلهم، أى شىء يقف عائقا أمامهم..

- هههههه.. أنتِ تبذلين جهدًا خارقا فى العمل..

- ألا تود السفر إلى أى مكان داخل مصر؟..

- إمممممم... لا أدرى، لكننى أخطط لقضاء الصيف فى مارينا.. هل ذهبتِ إلى هناك من قبل؟؟

- كثيرًا.. أعتقد أننى أستطيع مساعدتك..

ـ كيف؟؟

ـ أستطيع توفير لك محل الإقامة، كم شخصًا سيكون معك؟؟

ـ اثنان..

ـ اثنان..!!

ـ نعم.. جيهان وابنتى سلاف، لقد قصرت فى حقهما كثيرًا، أشعر بالذنب نحوهما، خاصة جيهان التى حاولت الانتحار بسببى..

ـ الانتحار!! متى حدث ذلك؟؟

قالتها وقد بدا الاهتمام عليها.

ـ البارحة، كان موقفا صعبًا، صعبًا للغاية..

- XIII -

لتأنيب الضمير سريان يجرى فى الدم فيحول الجسد إلى مادة هالكة لا تقوى على أى شىء..

على ضفاف النيل وجدت نفسى فى هجعة الليل، بدأ حوار ضميرى الساخط على أفعالى، حينما يتحدث إليك الضمير فغالبًا تستمع إلى عواصف رعدية وليس إلى نغمات موسيقية.. لم أستطع الذهاب إلى المنزل قبل أن أطمئن على جيهان، فقد سبب حديثى مع جومانة عنها ثورة داخلى، لا أعرف كيف تركتها حتى كادت أن ترحل عنى، ترحل إلى الأبد. ألا تدرك أننى لا أستطيع تحمل ذلك..

* * * * *

عندما فتحت جيهان باب شقتها لم أدر بنفسى إلا بين أحضانها بينما شفتاى تلتهم شفتيها وهى تبادلنى نفس الإحساس فى حنان بالغ..

ابتعدت عنى قليلا وهى تنظر إلى عينى وأنا أنظر إلى عينيها ثم قلت:

ـ لقد أصبحتِ أحسن كثيرًا من البارحة..

- الحمد لله.. لقد أزعجتك كثيرًا..

- لا تقولى ذلك.. المهم أنكِ ما زلتِ أمامى..

- أعتذر عن كل ما حدث، لقد كنت..

وقبل أن تهم بإكمال حديثها كانت شفتاى تسكتها وتمنعها من الحديث لأعبر لها عن أن هذا الحديث لا قيمة له طالما أننا مع بعضنا البعض.

* * * * *

كنت أستلقى بجوارها عندما أسندت جيهان ظهرها إلى السرير وفى يدها سيجارة مشتعلة ونفثت منها بقوة، فركت عينى، ثم قالت:

- لا أعرف لماذا استغرقت كل هذا الوقت حتى أنتشى!..

- لقد كنتِ رائعة، لقد بدأت أستعيد الإحساس بك..

انقلبت على جنبها الأيمن مستديرة نحوى قائلة:

- ممارسة الحب معك تشعرنى بالأمان..

- ومعكِ تشعرنى بالدفء..

أدارت وجهها بعيدًا عنى وكأنها تخشى أن تلتقى أعيننا ثم أخذت نفسًا من سيجارتها وقالت:

- فاروق.. أنا آسفة على كل شىء سببته لك، لقد كنت أنانية..

- جيهان.. لقد انتهى الأمر، لا داعى أن نناقشه، لقد انتهى الأمر تمامًا..

خطفت السيجارة من يدها وأطفأتها في المطفأة الموضوعة على حافه الكومود ثم جذبتها إلى صدرى واضعًا وجهها فوق كتفى ثم قلت:

- دعكِ من هذا الحديث، لقد أحضرت لكِ مفاجأة..

- بجد.. ما هى؟؟

* * * * *

أخبرت جيهان بخطتى لقضاء الصيف أنا وهى وابنتى سلاف فى مارينا وبدت سعادة غامرة على وجهها كأنها كانت تنتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر حتى تتناسى ما حدث لها.

عدت إلى البيت بعد الظهر، كان ظهر يوم الجمعة، هبت علىَّ فرحة عارمة عندما تذكرت أن هذا اليوم هو يوم ميلاد ابنتى سلاف. بعثت إليها برسالة على الهاتف أخبرها فيها بأن تنتظرنى بعد العصر سوف آتى إليها.

* * * * *

تتراءى المدينة فى أروع حالاتها، ها هى الشمس جميلة ذهبية تبدأ فى المغيب، تبدو كنيران استقرت فى باطن السماء ثم هدأت، تضيف بريقا آخر إلى هذه السماء الزرقاء، تضيف جاذبية غير معروفة السبب..

تتحرك عينى إلى أسفل ببطء مصور يبحث عن نقاط الجمال لتظهر المدينة التى نعيش بداخلها. كانت مزيجًا متلألئا من أنابيب الاختبار الصغيرة تسير بسرعة ملحوظة والأبنية المربعة الصغيرة جدًا والمتكتلة هنا وهناك وكأنها وضعت على سطح خريطة جغرافية، أما الظلال فكانت متساوية مع الأرصفة والتى تشير إلى وجود المحلات والمطاعم. لم يكن ما سبق سوى ما شهدته وأنا على قمة برج الجزيرة ومعى ابنتى سلاف التى اقترحت فكرة الذهاب إلى هناك، فكانت على صواب.

تناولنا الغداء فى أحد المطاعم المطلة على النيل ثم بعد ذلك اتجهنا إلى السينما وجلسنا نشاهد فيلمًا من أفلام ديزنى والفشار يندفع إلى فمنا ويتساقط منا قهرًا ونحن غير قادرين أن نمسك أنفسنا من شدة الضحك.

كانت المرة الأولى التى أشاهد فيها فيلمًا بعد بدايته، لا أعرف لمَ لمْ أتكدر من ذلك ولا أعرف لمَ لمْ ينتابنى إحساس الحزن لأننى أشاهد فيلمًا بعد بدايته بعشر دقائق.

كنت سعيدًا جدًا بهذه الفسحة التى أعادتنى إلى الحياة مرة أخرى جعلتنى أفكر فيها بنظرة طفلة لا تنتظر منها شيئا. كيف استطاعت تلك الصغيرة أن تغير من طابع أبيها بهذه السرعة؟؟

يا ليتكِ كنتِ فعلتِ هذا منذ زمن يا سلاف.

* * * * *

ظللت أسترجع هذه الفسحة الرائعة مع ابنتى وأنا جالس أمام لوحتى الألف أحاول إنهاءها. لقد أمدتنى ابنتى بشحنة هائلة من الحماس. ها هى اللوحة قد اقتربت من ميلادها السعيد لتجاور 999 لوحة قد سبقتها ولأنهى حياتى بها. بعد نصف ساعة من الزمن كنت أكتب عليها تاريخ الميلاد.

قمت من مقعدى أبحث عن ورقة جرائد أغطى بها اللوحة حتى لا تراها جيهان عندما تعود إلى البيت إلى أن أحضر الطريقة المناسبة لكى أفاجئها بها.

كانت جريدة موضوعة بإهمال خلف أحد كراسى الأنتريه، كان طرفها ظاهرًا بوضوح، لا أتذكر أننى قرأتها من قبل، اجتذبتها وعريتها من

صفحتها الأولى والأخيرة الملتصقة بها، ثم ذهبت إلى لوحتى أطوقها بها بكل اهتمام وسعادة فجذب عينى مانشت الصفحة الأولى:

"نجاة الفنان التشكيلى المعروف فاروق عزام من حادث تصادم، ومصرع زوجته وابنته"!

صارت رعشة تسرى فى جسدى وأنا أقرأ الخبر الذى كان ملخصه: أننى تعرضت إلى حادثة وأنا ذاهب لقضاء الصيف فى مارينا وأن زوجتى جيهان وسلاف قد ماتتا..

نظرت إلى تاريخ النشر فكان من عام مضى فسرعان ما ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهى وأنا أتذكر أننى لم أسافر إلى مارينا بعد وأننى ودعت ابنتى أمام البيت قبل قليل أما جيهان فقد كنت أحدثها فى الهاتف منذ ساعتين تقريبًا. كيف وصل بهم الأمر إلى فبركة كل هذا؟؟ لكن، كيف علموا أننى أنوى قضاء الصيف فى مارينا. لففت اللوحة ووضعتها وسط اللوحات المتراصة فوق بعضها، وأخذت أسخر مما قرأت، لفت انتباهى عدة كتب متراصة فوق بعضها موضوعة بجوار اللوحات، فأزحت عنها الغبار بظهر يدى ورحت أستكشفها، كانت كتبًا فى التصوف والشعر وروايات متنوعة لكتاب شباب.. واندهشت من هذا العنوان "لحظات يأس"، ليس العنوان فقط بل والغلاف أيضا الذى ما هو إلا صورة

مصغرة من لوحتى الألف وعليها توقيعى، حتى الإهداء.. "إلى زوجى العزيز الفنان فاروق عزام.. ليلى" !

قرع جرس الباب فكانت ليلى ترتدى فستانا أسود وقد غطت رأسها بطرحة من نفس اللون ممسكة بحقيبة ضخمة، هممت بسؤالها:

- ما الذى أتى بكِ إلى هنا؟؟ ألا تعرفين أننى متزوج وأحب زوجتى؟؟

- فاروق.. ماذا بك؟؟ أنا زوجتك، أنسيت بهذه السرعة؟؟

- زوجتي!! كيف!! لقد طلقتك، ألا تذكرين هذا؟؟

تخطت بقدميها عتبة الشقة حاملة حقيبتها التى وضعتها بالداخل وأغلقت الباب ثم قالت بكل برود:

- نعم أذكر. لكنى زوجتك منذ أربعة أشهر فقط، لقد عدنا إلى بعض.. وقد كنت مسافرة والآن عدت..

- وجيهان؟..

- رحمها الله..

- ماذا تقولين!! أتصدقين ما نُشر فى هذه الجريدة؟؟ أنا فقط من كان فى المشفى، أنسيتِ، حدث هذا العام الماضى، فقدت يدى اليمنى وركبت بدلا منها واحدة صناعية والآن تعمل بنجاح..

قلتها وأنا أشمر عن معصمى الأيمن حتى يتراءى إلى ليلى.

- فاروق.. تماسك، تماسك حبيبى، ألهذا كنت تذهب إلى شقتى القديمة..

لقد مر عام، أعلم أن الدرس كان قاسيًا، قاسيًا جدًا لا يتحمله أحد..

وضمتنى إلى حضنها ثم راحت فى نوبة بكاء حاد بينما كنت أحدق فى صورة ابنتى سلاف وجيهان المعلقتين أمامى وقد طوق أطراف الصورتين شريط أسود..

غير مدرك ما حدث.

تمت..

October 2009

E-mail

Ibra2010@gmail.com